

والحب . . .

لأنا تول فرانس

قرأت فيها فرأت كتباً المانيا عنوانه « على هامش سفر الحياة »
للاستاذ جره ردامتور ، فيعرض قوى صادق لمعيشة النساء اليومية
المضنية ، وقد ترى معي أن الحزن باد على هذا الجانب المظلم من
الجنس اللطيف : « في سيل مطالب الأسرة وحاجات الزوج
والأولاد تفقد ربة البيت سنا جمالها ، وتذهب غصارة وجهها ،
وتستهلك قوة بدنها ، وتنخرخ عظامها . فهذا السؤال الخالد المعاد
(ماذا عسى أن تطبخ اليوم من طعام ، ونهى من إدام) وذلك
الاضطرار الملح إلى مسح البلاط ، وتنظيف الغرف ، ونقص الثياب ،
وغسل الأواني إنما ، هما قطرة من ماء تتساقط دائماً دابة ، لا تقفأ
تعمل في بطن على انحلال جسد المرأة وعقلها حتى لا تبقى منها
شيئاً ، ولا تذر لها أثراً ، وإمام الموقف المشوب ، في المطبخ المشؤوم
يستحيل هذا المخلوق الصغير ، الناصع الزردي ، ذو الضحكة الساحرة
البورية إلى مومياء هزيلة سوداء . تبعث في الرائي الكتابة والالام !!
وبين يدي ذلك الوجع الأدخن الأسخمي ، يطبخ عليه اللحم ، في انقذر
تناثرت ضحايا كريمة : الشباب ، الحرية ، الجمال ، اللذة

هذه عبارات جرها ردامتور ، وهذا حظ الكثرة الغامرة في
الدنيا من بنات حواء . فإن الحياة عسيرة ملتوية عليهن كما هي عسيرة
ملتوية على الرجال ، كل يئن من وعوثة الطريق ويرفع عقبرته
بالشكوى والصراخ ولو راح باحث يستعلم وجه العلة في ذلك
لأيقن أن ليس في الامكان أن يكون غير ما كان ، وأن الحياة لا بد
أن تكون مضنية لأن جميع مقوماتها ضئيلة تندر فوق كوكب
صعب إنتاجه واستثاره ، ولن يرجح تخفيف عبث الشقاء لأن أسباباً
عميقة متغلغلة مصدرها شكل الأرض ، وطبيعة تركيبها ، ونوع
نباتها وحيوانها تحتم وأسفاه دوام هذه الحال ، وتقتضى عسر
المعاش إلى يوم القيامة . ومهما يكن من أمر توزيع العمل في الناس
فإن جمهرة الرجال وعامة النساء لتتواءم كواهلهم بحمل أعباءه ، ولن
ترى غير امرأتين أو ثلاث قد خلصن من مناع البيت ثم تسلمن إلى
مواطن اللهر وخرجن إلى باحة الحياة ينشرن الظرف والجمال ،
على مواطن العطر الذي واللذة المتجددة ، ويدخلن إلى النفوس
الآلما والأحلام !! وإنما اللوم كله لا شك عائد على الطبيعة وحدها

والحب ، ماعسى أن يكون مصيره ؟

لا تريد أن تعرف مصيره المنحدر إليه مادام الجوع عدوه اللدود
وخصمه العنيد . ومن الواقع الذي لا يتناول إليه الرب أن النساء
جائعات أبداً ، قد وكل اليهن أمر الطبخ في القرن العشرين كما وكل
اليهن أمره في القرن التاسع عشر ، اللهم إذا لم يرجع عهد هاتيك
العصور النائية حين كان الصيادون يلتمسون فرائسهم ساخنة
نيئة ، وحين كانت فينوس — آلهة الحب والجمال — تجمع
العشاق جميعاً وسط الأحراج ثم تفيض عليهم من وجهها
ماشات لها العاطفة المشبوبة أن تفيض يومئذ ، ويومئذ فقط ،
كانت المرأة حرة طليقة قد تنصلت من تكاليف الحياة وخرجت على
حدود الأسر والانكماش

وهأنذا أعترف اليكم بما يدور في خلدي ، فاستمعوا لما أقول :
لو كنت أنا خالق الجنسين من ذكر وأُنثى لأبدعتهما على نحو
يبين ما نعهده الآن فيهما من قناريات لبون . كنت لا أخلق الرجل
والمرأة على غرار القردة ، وإنما أنفثهما على صورة الحشرات التي
تكبد وتعمل إذ تكون ديدانا ، صغيرة ثم تنقلب إلى فراش جميل
طائر يحيا حياة التشرذ والهيام ، لا شاغل له غير أن يحب وأن يحب !
وكنت أضع طور الطفولة والشباب في آخر مراحل الوجود
البشرى . والواقع أن نوعاً معلوماً من الحشرات أثناء نموه وتطوره
تبيد منه المعدة وتقوى الأجنحة ، فهو إنما جاء إلى الدنيا بهذا
الشكل المهذب ليتمتع منها ساعة أو سبعين ثم يموت !

أجل الوكنت لها (أو أليها) بالتصغير) لأن فلسفة الاسكندرية
تعزو صنع هذا الكون إلى آله صغير أو شيطان مبدع (لو كنت أنثى
لما اتخذت غير هذه الحشرات نمطاً أنسج على منواله الإنسان ،
وكنت أجعل المرء يتم جميع أموره المعيشية الغذائية وهو جنين ،
وفي هذا التطور الابتدائي لا أثر للغريزة الجنسية البتة ، ولا جوع
يغشى الحب أو يلتم معاملة ، ثم ادفع الحياة إلى حيث يطير الرجل
والمرأة على أجنحة رفاقة ، ينتقلان فوق الزهور ، ويندوقان ما يشتهيان
ثم يموتان في عاقبة وتقييل . . . وهكذا أكون قد أكسبت الحياة
الفانية جزاء وفاقاً ، ووضعت الحب تاجاً على رؤوس الأحياء من
بنى آدم . ولعلك توافقتي على أن ذلك خير وأبقى !!

بد أتى واحسرتاه لم أخلق الكون ، والآله المبدع لم يشاورني
في الأمر ، وأنا أشك فيما بيني وبين نفسي أن يكون قد استشار أحداً
من الفلاسفة ، ورجالات العلم والمعرفة ؟

محمد روجي فيصل

حمص